لغة النقد الأدبي/ المفهوم وحدود الاشتغال المتخصّص

أ.د. نورة بعيو
جامعة مولود معمري تيزي وزو

Abstract :

This paper aims at revealing the levels of using the procedures of the critical methods as specilized languages, since they belong to a nomenclature that constitutes a method in its own right, from then on, we face a problem of appropriation of the critical term and the disordered use of it, to succeed in revealing the main features of a literary critical method, in particular with the diversity of the dictionaries clamed to be specialized, even we witness in our days an interaction between a critical method, and fields of knowlege and specialities, dispite of that, a literarary critical method gets its characteristic as a speciality, when involving its own procedures.

Key words : literary critique, specialized language, nomenclature, specialities' interaction, borders of use.

الملخص:

يحاول هذا المقال الكشف عن مستويات توظيف إجراءات المناهج النقدية الأدبية باعتبارها لغات متخصصة، بحكم أنها تندرج ضمن منظومة مصطلحية تشكل منهجاً قائما بذاته، ومن ثمة الوقوف عند معضلة جاهزية المصطلح النقدي وما نتج عنه من فوضى في الاستعمال، بهدف إظهار ملامح هوية المنهج النقدي الأدبي لاسيما مع تعدد المعاجم التي تدعي الاختصاص، وإن نحن صرنا نعايش عصر المناهج النقدية البينية أي تداخل مجموعة من التخصصات والحقول المعرفية مع المنهج النقدي الواحد، ومع ذلك فالمنهج النقدي الأدبي يتسم بسمة الاختصاص عندما تستوعب طريقة الاشتغال على إجراءاته وحدود هذا الاشتغال.

الكلمات المفاتيح: النقد الأدبي، اللغة المتخصصة، المنظومة المصطلحية، تداخل التخصصات، حدود الاشتغال.

تقديم:

تعتبر اللّغة من أبرز وسائل التواصل الإنساني، لذلك حظيت باهتمام العديد من الباحثين والعلماء قديما وحديثا، ولاسيما بعد انتشار طروحات العالم اللّساني "دي سوسور"، سواء كان ذلك التواصل لفظيا مباشرا بين طرفين أم كان مكتوبا بشكل خطي متواصل ومحدود بنقطة معينة. وإن تباينت الآراء حول إشكالية اكتساب اللّغة بين ما هو فطري طبيعي وبين ما هو إدراكي ومعرفي فالطفل يولد وهو مزود بقدرات إدراكية لتعلم اللّغة، أو ما يتعلمه الطّفل ما هو في الحقيقة إلاّ ما يعرفه عن العالم المحيط به.

وانطلاقا من هذا الافتراض يميّز "ج. بياجيه" لغة الإنسان عبر مروره بمرحلتين، المرحلة الأنوية، حيث الكلام يتمركز حول الذات المتكلمة، وفيما التكرارت الترديدية حيث يتمتع الطفل بسماع كلامه.

وبعد ذلك يشرع الطفل في محاورة ذاته والتحدث إليها فقط، وفي المرحلة الأخيرة يتحدث الأطفال جماعيا مع آنّهم، دون أن يبالي الواحد منهم بسماع حديث الآخرين، وهنا الطفل وكأنّه مركز العالم، والآخرون كلهم يدركون ما يدركه هو ويفهمون ما يفهمه.

والطفل هنا يتواصل مع آناه بشكل غير واع، كما أنّ تواجده وسط الجماعة هو تواجد فوضوي وغير منضبط، ولكن وبانتقاله إلى المرحلة الثانية أي المرحلة اللّغوية الاجتماعية، تنفتح الذات على الآخرين وتحاورها بطريقة واعية جدا، وكلما ارتقى الفرد فكريا ومعرفيا يقل الكلام الأنوي، إلى أن يختفي تماما. ومن ثمة فإنّ "بياجيه" يموقع الوظيفة التعبيرية والانتباهية للغة في اللّغة الأنوية، في حين يربط الوظيفة المرجعية والافهامية للغة باللّغة الاجتماعية، ويبقى هذان الإطاران نسبيان، لأنّ اللّغة الأنوية لا تختفي بشكل مطلق، فالكبار قد يحتاجون إليها في مناسبة ما، لأنّها مخزّنة في لا وعيهم.(1)

ومع اللّغة الاجتماعية كلغة عامة مقابل اللّغة المتخصصة تتزايد مجالات استعمالها وتداولها بين الأفراد داخل المجتمع في حياتهم اليومية، مما يدفعنا إلى التّمييز بين مستويين لغويين، الفصيح والعامي، والمستويان يتعايشان مع مختلف اللّغات المرتبطة بالمجموعات الاجتماعية المتفاعلة داخل المجتمع أو السوسيو لكتات بحسب اصطلاح الناقد الألماني "بير تزيما" كلغة الفلاحين ولغة الرياضيين ولغة المهندسين ولغة المجرمين ولغة البطالين وإلى غير ذلك من الفئات الاجتماعية، وهذه العلاقات تندرج ضمن اللّغة العامة والجارية في الاستعمال اليومي والمهتمين بحسب الفئة المعبرة عنها، والملاحظ أنّ دلالة هذه اللّغة تعود في الغالب الأعم إلى تواضع مستعمليها في علاقتهم بمجال اشتغالهم وتعاملهم الاجتماعي، الوضع الذّي أدى إلى انتشار المعاجم ذات الاستعمالات العامة (2)، مما يفضي إلى القول بأنّ هذه اللّغة تضم مجموع الكلمات التي تستقي قيمتها من العلاقة التّي تربطها فيما بينها بمعزل عن العامل الخارجي الذّي تدل عليه على حد تعبير "ماري كلود لوم".(3)

1-من اللّغة العامة إلى اللّغة الخاصة:

وعلى عكس اللّغة الاصطلاحية، أي التّي ترتبط بطريقة عضوية بما هو خارج عنها بمعنى مكونات المجال المعرفي والعملي اللذين تنتمي إليه، فالمصطلح هو كلمة أو مجموعة من الكلمات من لغة متخصصة علمية أو تقنية يوظّف للتّعبير بدقة عن مفهوم بعينه، لذا يعد كلّ من المفهوم والمصطلح عنصرين مهمين في علم المصطلح، والمصطلحات تحيل إلى معارف متخصصة تعبّر عنها لغة متخصصة، ويستحيل أن توجد خارج مجال اشتغالها الخاص/ المتخصص، فلا يمكن أن نستعمل كلمات كاللّقاح أو الجهاز العصبي المركزي أو فقر الدّم في مجال غير المجال الطبي، الذي لا يمكن أن نستعمل فيه مثلا كلمات مثل الفأرة، والبرمجية ونظام التشغيل وغيرها.(4)

ومن هنا تتجلى لنا خطورة الاستعمال الاعتباطي والفوضوي للمشتغلين بالمصطلحات حيث يتوجب عليها أن تحافظ على عناصرها المفهومية التّي شكلتها، فتتمكن من خلق تواصل متبادل بينها وبين اللّغة التّي تنتجها وتدفعها، وبين الموضع الذّي تريد معالجته في مرحلة أو فترة معينة.(5) وينطلق الباحث "لويك دوبيكير" من الطرح السوسوري في تحليله لعلم المصطلح، الذّي ذهب إلى أنّ الدّليل اللّغوي كيان ذو وجهين، دال ومدلول، وبالتالي المصطلح عنده كالدليل اللّغوي ينتمي إلى مجال متخصص تقني أو علمي، ويتألف من اسم ومفهوم، فالأوّل ينتمي إلى اللّغة والمفهوم ينتمي إلى الفكر، أي يتصل مباشرة بإدراك العالم وأشيائه، ذلك أنّ المفهوم يدل على شيء محدد، ويدل المصطلح على مفهوم، وينتمي

الشيء / الأشياء إلى مستوى الإدراك والواقع والمصطلح إلى المستوى اللّغوي، في حين نجد المفهوم يتعلق بالمستوى الفكري والمعرفي.(6)

2-من المصطلح العام إلى المصطلح الخاص:

يتناول علم المصطلح العام طبيعة المصطلحات ومكوّناتها المختلفة، وكذلك علاقاتها الممكنة، بالإضافة إلى اختصار المصطلحات إلى علامات ورموز، ثمّ تدوين المصطلحات وفق مناهج معينة تهتم بإعداد المعاجم الإصطلاحية.

أما علم المصطلح الخاص يتضمن تلك القواعد الخاصة بالمصطلحات في لغة مفردة كاللّغة العربية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإنجليزية (7).

وهكذا لا تعرف قيمة المصطلحات بسبب كثرتها وتنوّع مجالاتها إلاّ مقارنة بالمصطلحات الأخرى في إطار التخصص نفسه، فالمصطلحات العلمية تتجدد دلالاتها وألفاظها ضمن نظرية متكاملة، حيث هي عناصر مكمّلة لها، وعليه فإنّ المصطلح هنا يخضع في تطوره للتخصص نفسه، ولا يتحدّد إلاّ في داخل النّظام الذّي يكوّنه ذلك التّخصص، بحسب تطور علم المصطلح وتياراته المختلفة، فهناك علم المصطلح الاجتماعي الذّي يهتم بدراسة المصطلحات في السياقات التواصلية والاجتماعية التّي يظهر فيها المفهوم ويتم استعمال مصطلحه فيها، وعلم المصطلح النّصي الذّي لا ينفصل إطلاقا عن النّص مهما كان نوعه مكتوبا أو إلكترونيا، وكذلك علم المصطلح الثقافي الذّي يهدف إلى تمكين مختلف المجتمعات والشعوب من المحافظة على خصوصية ثقافتها وهويتها الخاصة، ولاسيما عندما تتفاعل مع ثقافات أخرى، بالإضافة إلى علم المصطلح الدلالي وعلم المصطلح النّقدي وعلم المصطلح الاجتماعي المعرفي...الخ.(8)

وبسبب مجالات علم المصطلح وتعدد تخصصاته، ميّز الدّارسون مجموعة من السّمات ذات الصّلة المباشرة بلغات التّخصص، فذهبوا إلى أنّ لغات التّخصص ليست مجرد مصطلحات وحسب، لأنّ هذه الأخيرة لا تقيم لغة بل تتواجد فيها، ولعلّ من أبرز السّمات الجوهرية للعبارة/ اللّفظة المتخصصة نجد توخي الدقة والدلالة المباشرة، وسواء أكان ذلك في المجال العلمي أم كان في المجال المهني، وهذا ما يفرق بين هذه اللّغة كلغة متخصصة، واللّغة الأدبية والفنية ولغات المجموعات الاجتماعية المهمشة والمعترف بها.(9)

3-وظائف المصطلح/ لغة الاختصاص:

يلخص الأستاذ والباحث الجامعي "يوسف وغليسي" وظائف المصطلح في علاقاتها بأبعاد لا تخرج عن مجال اشتغالها وهي:

أ-الوظيفة اللّسانية: وتنحصر في عملية اختيار قدرة اللّغة وعبقريتها على استيعاب المفاهيم الجديدة في كل الاختصاصات العلمية والمهنية وكذا التقنية.

ب-الوظيفة التّواصلية: يعد المصطلح مفتاح العلم والدّليل الذّي يضيء الفكر والمعرفة في إطار اللّغة نفسها، حتى لا يصير التكلم باللّغة في اللّغة نفسها أمرا غريبا أو مستعصيا.

ج-الوظيفة المعرفية: لأنّ المصطلح هو لغة العمل والمعرفة، فالمصطلحات هي مفاتيح العلوم كما قال القدامى في تراثنا العربي.

د-الوظيفة الاقتصادية: وتسمح هذه الوظيفة بتخزين عدد هائل من المعلومات في مفردات مصطلحية بعينها، والتّعبير بوحدات لغوية قليلة عن مفاهيم معرفية هائلة وواسعة، وفي كلّ هذا اقتصاد في الجهد واللّغة.

هـ-الوظيفة الحضارية/ الشمولية: تعتبر اللّغة المصطلحية لغة عالمية، تشمل كلّ الثّقافات، حيث تقوم كل لغة باقتراض ما تحتاجه من لغة أخرى، لتظل اللّغة حاضرة في ثقافتين أو أكثر.[10]

4-لغة النّقد الأدبي بين تعدد المناهج وتداخل التّخصصات:

لعبت المثاقفة دورا أساسيا في إقبال الباحثين العرب المعاصرين على مختلف المناهج النّقدية المعاصرة، وخاصة في بداية ثمانينات القرن العشرين، بحجة ضرورة الانفتاح على الآخر مع غياب واضح لعنصري الغربلة والاستيعاب الحقيقي، مما أدى إلى تلك المفارقة الواضحة بين المنبت الحضاري والتاريخي، وحتى الفكري للمصطلح، وبيئته الثانية أي الثقافة العربية.[11] ثمّ علاقة كلّ ذلك بالمتلقي الذّي غالبا ما يجهل خصوصية الثقافة الأولى/ الأصلية، ذلك أنّ هذا المتلقي يتحوّل في أحايين كثيرة إلى مغامر ذكي، فيعتقد أنّ كلّ المناهج صالحة لمقاربة نص من النّصوص الأدبية.

ومعروف أنّ أيّ منهج يستند إلى منظومة إجرائية أي مصطلحية خاصة به، فهي لغة متخصصة في مجال هذا المنهج، ولكن قد يحدث أنّ الباحث في ظلّ هذه المغامرة/ المتاهة يضيع بسببين؛ أولهما الفشل في اختيار المنهج أو انتقاء المصطلحات المناسبة لموضوع البحث، وثانيهما عندما يجعل هذا الباحث موضوع بحثه وسيلة يتوخى من خلالها إظهار كفاية المنهج ونجاعته وهنا عليه إماّ أن يضحي بالموضوع فيقدّس المنهج، وإما أن يحدث بعض التحريفات في المنهج فيضر بالاثنين معا.[12]

أ-جاهزية المصطلح النّقدي وفوضى الاستعمال:

أضحت مشكلة المصطلح النّقدي الجاهز ذي المنشأ الغربي تتميّز بالكثير من الفوضى والخلل واللّبس في الوضع والترجمة، ولرّبما مرد ذلك هو اختلاف ثقافة الباحثين من حيث تعاملهم مع اللّغة الأجنبية، فهناك أجنبي يستوعب الأدب الأجنبي ونقده في لغته الأصلية، وآخر ذو ثقافة يقرأ الأدب الأجنبي ونقده باللّغة العربية وصنف ثالث ذو ثقافة عربية يأخذ من كل فن بطرف وأكثر من ذلك فإنّ الأوروبيين أنفسهم لا يتفقون على المصطلح نفسه، بسبب ثقافتهم الخاصة أو مذهبهم الأدبي وتوجههم النّقدي، وكيف الحال مع من هو بعيد عن الثقافة الغربية [13]، ولاسيما وأنّ الباحث العربي نادرا ما يجتهد في صناعة لغة متخصصة في المجال النقدي، ويعلّل ذلك بمجموعة من العوائق يمكن حصرها كما يأتي:

-تدريس أغلب المواد العلمية في معظم الجامعات العربية باللّغات الأجنبية، مما يحول دون انتشار هذا المصطلح أو ذاك.

-الحصار الذّي تفرضه المجامع اللّغوية العربية، حيث لا تسمح بإدراج مصطلحات جديدة إلاّ بموافقة الهيئات الرسمية.

-ضعف الإنتاج العلمي والمعرفي العربي، وتشجيع الروح الاستهلاكية التّي تحول دون التجديد في هذا المجال.

-التقدم الهائل الذّي حقّقه البحث العملي والتقني والتدفق الهائل للمصطلحات وأسماء المخترعات في كلّ لحظة.

-عدم الاتفاق الكلي على تسمية العديد من الدوال والمصطلحات والمفاهيم بين المجامع اللّغوية العربية، كلّ هذه الصعوبات والعراقيل تنقص من إرادة الباحثين في سعيهم الدائم لتوحيد المصطلحات النقدية الأدبية بخاصة والمصطلحات المختلفة في مجالات العلوم الإنسانية بعامة.[14]

والحال هذه، فيما يتعلق بإنتاج المصطلحات النّقدية/ المتخصصة، والعوائق التّي تقف ضد أيّة مبادرة حقيقية تجتهد لخلق مصطلحات جديدة تواكب التّطور الحاصل في الثقافة والفكر العالميين، فإنّ هناك ومقابل هذا الوضع أصواتا تدعو لما يعرف "بالاقتصاد المصطلحاتي"، حيث يذهب هذا الرأي إلى إمكانية استغلال المصطلح الواحد في حقول معرفية متعددة، ولكنها متقاربة الأمر الذّي يجنب الباحث عناء توليد المصطلح في الحقل المعرفي الواحد، مما يفتح الباب على مصراعيه لإعارة المصطلح من بيئته الأصلية إلى بيئة جديدة بعد شحنه بحمولة دلالية أخرى يرغب في ممارستها الباحث ويتقصدها، وكأنّ المصطلح هنا في حركة مستمرة ودائمة.

والملاحظ أنّ مثل هذا الاقتراح أو الطرح يرفض المعرفة الواحدة المختصة، داعيا إلى النموذج الموسوعي أو الباحث الموسوعي الذّي افتقده النقد العربي باسم التّخصص من جهة، ومن جهة أخرى تجاهل الخلط والفوضى العارمة التّي صار يتخبّط فيها الباحث وهو يتأهب لتحضير دراسة نقدية أو تقديم مشروع نقدي ما، ويكفي أن نمثّل لهذا الوضع البعيد عن العلمية والدّقة، بما تعرضه بعض مذكرات الماجستير وحتى رسائل الدكتوراه عبر العديد من الجامعات العربية، مما يؤكد عدم التحكم الكلي في المنهج المختار أو المعتمد من طرف الباحث.

ب-دقة المنظومة المصطلحية تحدد هوية المنهج النقدي:

إنّ العلاقة وثيقة جدا بين المنهج والمصطلح، لمن يرغب في مناقشة إشكالية المنهج النقدي الأدبي، هذا المنهج الذّي كلما استعار مصطلحات من منهج/ مناهج أخرى أوقع نفسه في متاهة اصطلاحية لا مخرج منها، وعندها لن يتمكن أيّ باحث من التحكم في كلّ هذه المصطلحات الوافدة، باستثناء المصطلحات التّي تفعّل المنهج وتجعله أكثر دقة وعلمية، حتى لا يفتح المجال "لهيمنة المصطلح النمطي أو اللا منتمي أو الشارد عن المنهج والذي له قابلية لأن يتواجد في أيّ منهج، دليل واضح على التشكيك في دقة ونجاعة هذا المنهج"[15]، والمتصفح لبعض الحقول النقدية المعاصرة، يلاحظ أنّ البحث مثلا في مجال النّص صار يشكّل همًّا منهجيا كبيرا من حيث الضبط المعرفي والمنهجي، خاصة وأنّ مصطلح النّص ينفتح على العديد من المعارف والحقول الأخرى كعلم النفس والاجتماع والسيميائيات والذكاء الاصطناعي وغير ذلك، فيقف الباحث مشدوها أمام هذا الزخم المعرفي والاصطلاحي، الذّي يعتمد في قراءة النّصوص والكشف عن بنياتها ووظائفها وخاصة أنّ "لسانيات النص" اليوم تحظى بمزيّة التّداخل المعرفي، كمظهر مميّز لعلوم الألفية الثالثة، وبالتّالي تتعدد المصطلحات للعلم نفسه، ففي البحث النّصي علم دلالة النّص، ونحو النّص وتداولية النّص وعلم اللّغة النّصي ...الخ[16].

ومما زاد من خطورة المفارقة المخيفة بين المنهج المعتمد في مقاربة نقدية ما والمصطلحات المشتغل عليها من لدن الباحث، ولاسيما في عصر تداخل المعارف والاختصاصات، أنّ العديد من هذه المصطلحات وفد علينا من بيئة أجنبية، ولا يختلف اثنان على الدور الذّي تلعبه طبيعة المصطلح الأدبي/ النقدي الغربي، الفكرية أو الثقافية أو السياسية أو الفلسفية أو العقائدية عندما يتم نقله إلى اللّغة العربية.

فبات من السّهل على الدّارس اعتماد هذه المصطلحات في إحدى مقارباته النّقدية كالهيجيلية والفرويدية والهتلرية، لاسيما وأنّ العرب لا يزالون في اتصال دائم مع هذا الغرب الذّي في كلّ مرة يفاجئهم بمصطلحات جديدة في ظل الانفجار المعرفي المتزايد[17]. ومقابل ذلك نجد شحا في المجامع العربية المتخصصة والمعاجم النّقدية الأكثر تخصصا بسبب القيود

والصعوبات التّي يواجهها الدّارسون والباحثون في سبيل صناعة المصطلح النقدي أو ترجمته بطريقة موحدة ومثبتة دالا ومدلولا كما أكد ذلك الباحث "الجيلالي حلام"(18).

والجدير بالملاحظة أنّ عددا كبيرا وغير محدود من المصطلحات النقدية في الفكر النقدي العربي المعاصر لم ينشأ بدافع الحاجة التّي يفرضها الإبداع الأدبي بشكل طبيعي، بل دخلت إلى البحث بطريقة جاهزة، بسب غياب أعمال إبداعية تقابلها أو تناسبها. فكانت حتمية ترجمة المصطلح النقدي وتعريبه ضرورة لا مفر منها، فتوالت المصطلحات النقدية وتشعبت مفاهيمها، كما ازدادت المغالطات بين النقاد والدارسين إلى درجة التداخل والخلط والتكرار، وبخاصة في المعاجم التّي صنفت على أنّها متخصصة جدا.

ج _ كثرة المعاجم تُخفي لغة الاختصاص وتعمّم الاشتغال:

فعلا لقد شهدت السّنوات الأخيرة منذ القرن العشرين تأليف مجموعة من المعاجم والقواميس في الوطن العربي ، التّي أظهرت عناوينها المختلفة أنّها تصب في مجال متخصص جدا، وهو لغة "النقد الأدبي" عرضا وتصنيفا وتعريفا وتحليلا وممارسة، وتماشيا مع التحولات الكثيرة والسريعة التّي عرفها الفكر والثقافة فكان هدف هذه المعاجم توجيه الباحث وإرشاده للاشتغال الصحيح وبكلّ أريحية مع هذا المصطلح النقدي أو ذلك ضمن المنهج الذّي ينتمي إليه.

ولكن، الذّي يحدث في الغالب الأعم، أنّ هذا الاجتهاد النّسبي في التّأليف المعجمي والزخم الواضح والمدهش للمصطلحات النقدية المعاصرة المصاحب لتتابع ظهور المناهج النقدية بدفعات سريعة، يجعل العديد من المشتغلين في مجال لغة الاختصاص/ النقد الأدبي، ضائعا أو تائها في متاهات مفهوماتية واصطلاحية تغيب معها الدّقة والاشتغال الصحيح، الأمر الذّي يؤدي إلى خلق فوضى اصطلاحية لا حدود لها، كما تجعل هؤلاء الباحثين يتوهمون أنّهم في الاتجاه الصحيح من حيث ضبط المصطلح وما يناسبه من مفهوم في إطاره المنهجي الحقيقي، في حين أنّهم يتجولون عبر مناهج مختلفة بانتقاء مصطلحات متداخلة ومتقاربة، وكأنها من منهج واحد. إذن أين موقع لغة الاختصاص في مجال يُفترض أنّه جاء ليحدّد ويضبط حدود اشتغال هذه اللّغة في مجالها؟

وعليه وعبر تصفح متواضع وسريع لبعض هذه المعاجم النقدية "كمعجم مصطلحات النقد الحديث" لحمادي صمود و"معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" لمجدي وهبة وكامل مهندس، وأيضا المعجم الأدبي لجبور عبد النور وفي الأخير معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة لسعيد علوش* فبالإضافة إلى عمليات الجمع والانتقاء والتصنيف والترتيب، فإنّ هذه المعاجم مع كل الجهود التي بذلها مؤلفوها، فإنّ ذلك لم يجنبها العديد من السلبيات والأخطاء والثغرات ومنها استعمال عدّة لغات، الإيجاز والغموض ومحدودية الدلالة، الاقتصار على مصطلحات منهج بعينه بشكل جزئي كالمنهج البنيوي مثلا، وعدم التطرق إلى عدد وفير وكثيف من المصطلحات، أو أن يكون هذا المعجم نسخة مطابقة للأصل الغربي/ الفرنسي القديم الذّي يخالف المصطلح النقدي الأدبي الحديث، أو أن يكون المعجم إعادة وتكرارا لما عرض في معاجم سابقة.

وحتى معجم "سعيد علوش" الذّي اعترض فيه على معاجم "مجدي وهبة" و"صمود" و"عبد النور" متوقفا عند عيوبها، ومبيّنا ثغراتها، محاولا تجاوزها استنادا إلى مجموعة من المعاجم الإنجليزية والفرنسية المدرسية الحديثة والمعاصرة، فإنّه ابتعد عن الهدف الذّي سطره في البداية حيث فيه ميل واضح نحو الكليات الإنسانية وهو العيب الذّي آخذه على

معجم "مجدي وهبة"، كما أنّ مجموعة من مصطلحات لا تقابلها ممارسة أدبية فعلية في الوطن العربي، بالإضافة إلى افتقار المعجم للأمثلة التوضيحية.(19)

د-لغة النّقد الأدبي وتداخل المصطلحات:

تعد إذن لغة النّقد الأدبي من لغات الاختصاص التّي بانت تجاوز وتتعايش مع لغات اختصاص أخرى، في حقول مغايرة، ولعلّ ما يهمنا في هذا الإطار هو الإشارة، السّؤال/ الملاحظة هل فعلا لغة النقد الأدبي هي لغة اختصاص فعلا؟ ذلك أنّ قراءة سريعة لبعض المصطلحات النقدية بمناهج محددة كالسيميائيات والتفكيكية والحوارية ونظرية التناص وجمالية التلقي، تبيّن أنّ هذه المصطلحات في الغالب لا تشتغل ضمن حدود منهجية معينة، معزولة عن المناهج الأخرى بل نجدها منفتحة ومتداخلة ومخترقة لمنهج/ مناهج كثيرة، ومن هنا لم يعد الأمر يثير أيّ استغراب، حيث صار الناقد يتعامل مع التفكيكية في نظرية التلقي والاتجاه التأويلي، ويوظف التّناص أو المناص في نظرية التناص والحوارية وسيميائيات التأويل والنسق في لسانيات النص والنقد الثقافي...الخ، وبالتّالي نطرح السّؤالين الآتين، هل لغة النقد الأدبي هي فعلا لغة اختصاص؟ أم أنّها لغة اختصاص داخل اختصاص؟ ليفرض سؤال ثالث نفسه، وهو هل هناك محاولة منهجية حقيقية اشتغلت إلى حد بعيد على لغة الاختصاص ضمن حدود منهج محدد؟

وللإجابة عن السّؤال الأخير، نحاول أن نمثّل ببعض المصطلحات النقدية المعاصرة والتي كثيرا ما يعتقد الدارس أنّه أصاب في انتقائها وممارستها وذلك إمّا لأنّه يتجاهل أصول هذا المصطلح، أو مرجعياته الحقيقية، والأخطر أنّه لا يعرف أين وكيف اشتغل عليه لأوّل مرة، مما يؤدي إلى تواجد المصطلح نفسه في منهجين نقديين أو أكثر، ومن باب التمثيل لا الحصر نقف عند بعضها:

-**أفق الانتظار أو أفق التوقع:** هو مصطلح متداول في الفلسفة الألمانية، وظفه "غادامير" بمعنى أنّه لا يمكن فهم أية حقيقة دون أن نأخذ بعين الاعتبار النتائج المترتبة عنها، فتاريخ التفسيرات والتأثيرات الخاصة بحدث أو عمل ما هو الذي يمكننا في الأخير من فهمه كواقعة ذات طبيعة تعددية للمعاني وبصورة مغايرة لتلك التي استوعبته وفهمه بها معاصروه.(20)

واستثمر "ياوس" مفهوم أفق التوقع ليحيل إلى مفهوم السوابق، أي الفكرة السابقة عن شيء ما، والتاريخ الأدبي في رأي "ياوس" هو مجموعة من النصوص رشحتها القراءات المختلفة في مراحل زمنية مغايرة طبقا لمعايير هذه القراءات، والقارئ حين يقرأ نصا ما، فإنّه يقارن بينه وبين نصوص سبقته، التّي شكلت في الحقيقة نقطة بناء أفق انتظاره أو توقعه، "فالنص عند ظهوره لأوّل مرة يرتبط بتلقي معيّن، ويعتمد على أفق التوقع السائر في الفترة التّي ظهر فيها، وقد يتغيّر ذلك التلقي من فترة زمنية إلى أخرى، قد ترفع من شأن النّص، أو تخفيضه حسب أفق الانتظار الجديد"(21).

إلاّ أنّ هذا المصطلح الذّي تداوله الدّرس النّقدي المعاصر في إطار نظرية القراءة جمالية والتلقي كما وضعها الفكر الغربي، يُعرف في إحدى الدّراسات المعجمية المتخصصة في النقد الأدبي، ولاسيما "لسانيات النص" كما يلي "أفق الانتظار هو مصطلح باختين يشير على مجموعة الاحتمالات الثقافية والاجتماعية الموجهة لاستجابة المتلقي"(22)، صحيح أنّ طروحات النّاقد الرّوسي طالت حول حقول معرفية ونقدية مختلفة بشكل أو بآخر، بدليل أنّ فكره النقدي الذّي تجسد في "الحوارية" طال العديد من المناهج النقدية الأدبية وحتى النقد الثقافي، حيث نجده في التداولية وعلم النص ونظرية التناص ونظرية القراءة وجمالية التلقي والنقد الاجتماعي واللسانيات الاجتماعية وكذلك لسانيات النص والنقد الثقافي الذي تتقاطع

معه الحوارية في العديد من النقاط. وما دمنا نتحدث عن لغة النقد الأدبي كلغة متخصصة، علينا أن نتحرى الالتزام ونشتغل مع المصطلح في إطار المنهج الذّي ينتمي إليه بأصوله الأولى، حتى لا نفرغ هذا المنهج من مصطلحاته الأصلية، ونسهم في انتقال هذا المصطلح عبر مناهج متعددة، لنغلق باب الاجتهاد وتأليف مصطلحات جدية تناسب كلّ منهج على حدة، خاصة وأنّ "باختين" في طرحه للحوارية تكلّم عن مجموعة من المعطيات المتفاعلة ثقافيا واجتماعيا التّي تؤثّر على استجابة القارئ للنّص في الفترة الزّمنية التّي ظهر فيها لأوّل مرة وتختفي هذه الاستجابة إيجابا أو سلبا في فترة أخرى، لأنّ هذه المعطيات قد تغيّرت بسبب تحوّلات المنظومة الثقافية وقيّم الواقع الاجتماعي التي تؤثر بلا شك على إبداع النص الأبي (23).

-**التفكيكية:** وهو من المصطلحات الرائدة التّي أفرزتها حركة ما بعد البنيوية وبخاصة مع أحد روادها "جاك دريدا"، الذّي رأى أنّه يستحيل الوصول إلى فهم نهائي للنّصوص، بمعنى فتح المجال للتأويل اللامحدود، طالما أنّنا بصدد البحث عن معنى المعنى، والغريب أنّ هذا المصطلح يذكر في مجال نقدي غير "المنهج التفكيكي" وهو لسانيات النص، وكأنّها هي المنبع الأصلي لهذا المصطلح، أم أنّه كلّ مصطلح إذا ما فسر في تعالقه مع كلمة "نص" أدرجناه في لسانيات النص؟ وبالتّالي ما هي المصطلحات الخاصة "بلسانيات النص"؟ ذلك أنّ مؤلف الكتاب يشير في صفحة سابقة أنّ مصطلح "تفكيكي" ارتبط بتصور "رولان بارت" لمفهوم النّص من خلال قوله بأنّ النّص نشاط وإنتاج. فالنّص قوة متحركة تتجاوز جميع الأجناس...ثمّ يضيف إنّ النص مفتوح على القارئ، كلّ هذا يبين أنّ التفكيكية مصطلح موزع بين المنهج التفكيكي كاتجاه نقدي ما بعد بنيوي وطروحات "رولان بارت" البنيوية، وكذلك نظرية القراءة وجمالية التلقي وأكثر من ذلك يدخل المصطلح أيضا في نظرية التفاعل الأجناسي (24)، مع أن المصطلح وضّحه وحلّله صاحبه "جاك دريدا" في العديد من مؤلفاته المضبوطة والدقيقة، مبيّنا أصوله الفلسفية واللّغوية، ويكفي أن نذكر كتابيه: الجراماتولوجيا أو "علم الكتابة" "والكتابة والاختلاف"** حيث يعترف "دريدا" نفسه، أنّ كلمة "تفكيك" أخذها من "هيدجر"، وعليه فعندما يكون للمصطلح جذوره وأصوله المحددة، كلفظة متخصصة، لا يمكن أن تتحوّل هذه الكلمة إلى كلمة عامة نشتغل عليها في سياق يستدعي توظيف النص طالما أنّ هناك منهجا خاصا بتحليل النصوص الأدبية ودراستها وهو لسانيات النّص، أم أنّها منهج بدون منظومة مصطلحية خاصة بها.

-**مصطلح النّسق:** هو ما يتولّد عن تدرج الجزئيات في سياق ما، أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية، إلاّ أنّ لهذه الحركة نظاما معينا يمكن ملاحظته وكشفه، كأنّ لهذه الرواية نسقها الذّي يولّده توالي الأفعال فيها، أو أنّ هذه العناصر المكوّنة لهذه اللّوحة من خيوط وألوان تتآلف وفق نسق خاص بها (25)، هذا المفهوم ورد في كتاب يفترض أنّه عرض مجموعة من المصطلحات الخاصة بلسانيات النّص كمنهج نقدي متخصص بمرجعية سوسورية واضحة.

إلاّ أنّ النّقد الثّقافي كحقل نقدي واسع يختص بكلّ ما هو ثقافي، حتى النّص يعتبره ظاهرة ثقافية، فيبني تصوره للنسق الثقافي انطلاقا من مرجعيات ماركسية تكشف عن تاريخية مجتمع يعيش صراعا طبقيا مريرا بين البروليتاريا، التّي تحاول استعادة حقوقها المهضومة في ظل النظام الرأسمالي التوسعي، والماركسية كفلسفة مادية جدلية لم تعلن عن نهايتها بعد، لأنّ زّمن استغلال الإنسان الذّي هيمن على العديد المجتمعات لا يزال موجودا بأشكال محتلفة، وإن كانت ثنائية المجتمع والسّلطة قائمة على صراع مستمر متجذر في القدم، وعليه فإنّ هذه النزعة التاريخانية الجديدة هي قراءة للأنساق

الثقافية ضمن المناخ التاريخي والسياق الثقافي اللّذين أنتج فيه النّص الذّي يحوي أنساقا متعددة مرتبطة بالدين والسياسة والإديولوجيا والأعراف والتقاليد وغيرها للكشف عن مواطن الصمت والتهميش في المجتمع، وتعرية هذه الأنساق المضمرة بالاستناد إلى قدرات الناقد ومعرفته الواسعة (26).

وهكذا، وإذا كان مفهوم المصطلح يرتبط بأصوله الأولى ومرجعيته التاريخية والفكرية، فإنّ النقاد المعاصرين في حيرة، وهم يحاولون الوقوف عند إجراءات منهج معيّن في ممارسة نقدية ما فهل باستطاعاتهم أن يكيّفوا المصطلح بحسب طبيعة المدونة المشتغل عليها؟ والإشكالية هي إلى أيّ مدى يمكنهم أن يحافظوا على الخصوصية المنهجية الأولى لهذا المصطلح أو يحوّلوه إلى مصطلح مائع يتصرفون معه بحسب هوى المدوّنة وقدراتهم، وكذلك معارفهم الخاصة والعامة والنتيجة أنّ مفهوم النّسق في لسانيات النّص يختلف عن مفهومه في النّقد الثّقافي.

-**القارئ الضمني:** هو مصطلح وضعه "فولفغانغ آيزر" في إطار نظرية القراءة وجمالية التلقي المعاصرة كمفهوم إجرائي؛ ويقصد به تلك السّلطة المهيمنة للقراءة في بنية الفهم النصي، والقارئ صاحب الخبرات الواسعة والمتنوعة يأتي ليملأ الفجوات التّي تظهر من عدم التوافق بين النّص والقارئ.(27)

إنّ هذا المعنى الخاص بالقارئ الضمني نقرأه في كتاب وُضع بهدف رصد المصطلحات المرتبطة بلسانيات النّص وتحليل الخطاب، فما موقع هذا المصطلح في هذا الكتاب؟ ذلك أنّ جمالية التلقي حسب آيزر الذّي فرق بين القارئ الضمني والقراء الذّين حددتهم المدرسة البنيوية والأسلوبية فقالت بالقارئ المثالي والقارئ الخبير والقارئ المستهدف، أما قارئ "آيزر" هو قارئ غير حقيقي، يتحقق وجوده من خلال النّص فقط، فهو ليس شخصا خياليا مدرجا داخل النص، ولكنه دور مكتوب في كلّ نص ويستطيع كلّ قارئ فعلي أن يتمثله، وهو في نظر " آيزر" أي القارئ الضمني مظهران مترابطان؛ الأوّل ذو معنى تجريدي يظهر في صورة نمطية مثالية، تحضر في جميع النّصوص التّي تنتمي إلى مرحلة فنية في ثقافة معينة، أما الثاني فهو مجسد في قارئ كفء له وجود فعلي ويملك مقدرة على التفاعل أيضا.(28)

-**مصطلح التأويل:** والوضع نفسه مع مصطلح التأويل، هل هو متجذر في لسانيات النص أم في نظرية القراءة مع "غادامير" أو في النقد الثقافي مع الناقد "هبرماس"، أم أنّ مصطلح التأويل يشتغل عليه في المنهج السيميائي التأويل بريادة "بول ريكور"(29). فالقارئ/ الدارس وهو يصادف المصطلح نفسه مع كلّ هذه الأسماء وفي هذه المناهج والاتجاهات النقدية المختلفة، هل سيقتنع أنّه بصدد التعامل مع لغة اختصاص معيّن؟

وكذلك إذا ما حاولنا البحث عن سرّ الخلط والتداخل بين مصطلحات نقدية أخرى، حيث يستعمل الباحث مصطلح "الحوارية" عوض التناص أو النص الأعلى أو معمار النص، ويجعل مصطلح التعدد الصوتي في مكان الحوارية والتعدد اللّغوي يستبدله بالتعدد الصوتي، وأحيانا يعوّض مصطلح التناص بالتفاعل الأجناسي وهذا بالتفاعل النصي...الخ وحتى صرنا لا نميّز بين لغة عامة ولغة خاصة/ اختصاص أو لغة اختصاص داخل لغة اختصاص آخر؟

وخاتمة القول يمكن أن نشيد بالجهود القيّمة التي يقوم بها بعض الباحثين في مجال المصطلح والمصطلحية، وخاصة في لغة النقد الأدبي، أين نتعامل مع لغة اختصاص واضحة ودقيقة إلى حد يصعب فيه على هذا الباحث أن يخطئ أو يقع في مغالطة ما أثناء مقاربته لنص معيّن، ويكفي أن نستشهد هنا "بقاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص" لمؤلفه رشيد بن مالك"(30)، فقد عالج موضوعا واحدا يتعلق بنظرية غريماس في هذا المجال بعلمية وضبط

منهجي دقيق، يستثمره الدّارسون بكل أريحية في مقاربتهم للنّصوص السردية، بالإضافة إلى جدته، حيث صدر الكتاب القاموس في سنة ألفين، كما أنّ "رشيد بن مالك" في كلّ مرة كان يحيل القارئ إلى مختلف المفاهيم المرتبطة بالمصطلح الواحد، فيدرك موقع هذا المصطلح في ثقافته الأصلية ويهيئه لاستقباله في الثقافة المترجم إليها أي العربية، مما يبيّن أنّ صاحب القاموس اشتغل فعلا على لغة اختصاص واضحة، والطريقة نفسها اتبعتها جماعة "معجم السرديات" بإشراف الناقد والباحث "محمد القاضي"، فقد انتقى مؤلفو المعجم قائمة المصطلحات ذات الصلة المباشرة بالسرديات أو علم السرد، مع تحري الدّقة والشرح والإحالة إلى المراجع المختلفة واعتماد السياق بهدف التفسير والمقارنة، بالإضافة إلى التأكيد على المقابل باللّغة الأجنبية/ الفرنسية في كلّ مرة داخل المتن، واتباع كل ذلك بوضع قائمتين للمصطلحات باللّغتين الفرنسية والانجليزية في آخر المعجم كملحق له، وفهرس للمصطلحات بالعربية والفرنسية مرتب أبجديا في الأخير [31].

وعليه لا يجد الدّارس صعوبة في البحث عن حقيقة المصطلح وجذوره ومفهومه في مجال السرديات، أي لا نعثر في المعجم نفسه على مصطلحات أخرى لا علاقة لها بهذا المجال، ومن ثمّ فقد حقّق هذا الجهد صفات العلمية والوضوح واحترام الاختصاص المنهجي، فيدرج في إطار المعاجم المتخصصة في النّقد الأدبي، لنطمح في الأخير أن يقتدي باحثون آخرون في البلاد العربية إلى تأليف معاجم متخصصة في مناهج وحقول نقدية أخرى بسبب كثرتها وتشعبها.

الهوامش:

---

1 -أنظر/عمر أوكان، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2001، ص ص21-23.

2 -أنظر/ البشير التهالي، تعريف المصطلحات في الفكر اللساني العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص59.

3 -أنظر/ماري- كلود كلوم، علم المصطلح مبادئ وتقنيات، ت:ريما بركة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012، ص18.

4 -أنظر/ المرجع نفسه، ص19.

5 -أنظر/ محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر ، دت، دم، ص ص10-13.

6 - voir /Loie Depeker :entre signe et concept ,élément de terminologie générale,sorbonne nouvelle, paris,2003,p p112-113.

7 -أنظر/ فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص ص17-18.

8 -أنظر/ ماري-كلود لوم، علم المصطلح، ت: ريما بركة، ص ص20-22.

9 -أنظر/ فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص14.

10 -أنظر/ يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2008، ص ص42-44.

11 -أنظر/ عبد العالي بوطيّب، "إشكالية المنهج في النقد العربي الحديث"، مجلة عالم الفكر، المجلد 23، ع1، ع2، 1994، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ص ص456-458.

12 -أنظر/ عباس الجراري، خطاب المنهج، منشورات السفير، بيروت، ط1، 1990، ص71.

13 -أنظر/ أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ناشرون، بيروت، 2001، ص ص9-10.

14 -أنظر/ حسن العايب، إشكالية المصطلح العلمي وأثرها في دقة الترجمة، مجلة المترجم، جامعة وهران، ع1، 2001، ص ص135-136.

15 - يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص59.

16 -أنظر/ نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 2009، ص ص22-23.

17 -أنظر/ حسن غزالة، "ترجمة المصطلحات الأدبية وتغريبها"، مجلة علامات، مكناس، المجلد 12، ع18، 2003، ص ص26-34.

18 -الجيلالي حلام،"ترجمة المصطلح"، مجلة المترجم، جامعة وهران، العدد الأوّل، 2001، ص145.

*يمكن العودة إلى مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، 1979، وحمادي صمود: معجم مصطلحات النقد الحديث، حوليات الجامعة التونسية، تونس، ع15، 1997، وكذلك جبور عبد النور: المعجم الأدب، دار العلم للملايين، بيروت، 1970، وأيضا سعيد عوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبعة المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، 1984.

19 -أنظر/حفناوي بعلي: "المصطلح النقدي في المعجمات الأدبية العربية الحديثة"، عدد خاص بالملتقى الدولي:المصطلح والمصطلحيّة، جامعة سعد دحلب، البليدة، يومي 15-17 مارس 2004، ص ص312-315.

20 -أنظر/ ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، عمان، ط1، 1987، ص138.

21 -مخلوف بوكروح: التلقي والمشاهدة في المسرح، مؤسسة فنون وثقافة، الجزائر، 2004، ص ص17-18.

22 -نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص91.

23 -أنظر/ ميخائيل باختين، جمالية الإبداع اللّفظي تر/ شكير نصر الدين، دال للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، 2011م.

24 -أنظر/ نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص ص99-100.

**لمزيد من الإيضاح أنظر/ عصام عبد الله، جاك دريدا، ثورة على الاختلاف والتفكيك، مكتبة الأنجلومصرية، ط1، 2008، ص13، وأيضا: تاوريرت بليشر وسامية راجح: التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر، دار رسلان، بيروت، ط1، 2008، ص15.

25 -أنظر/نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص140.

26 -أنظر/ روجيه غارودي: ماركسية القرن العشرين، ت: تريه حكيم، دار الآداب، ط5، بيروت، 1983، ص ص64-65، وكذلك يوسف القديم عليمات: النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم،عالم الكتب الحديث، بيروت، ط1، 2009، ص ص121-122.

27 - أنظر/نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص59.

28 -أنظر/ بشرى موسى صالح: نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص ص50-52.

29 -أنظر/ نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص ص95-96.

30 -أنظر/ رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، الجزائر، 2000.

31 -مجموعة من الباحثين: معجم السرديات، إشراف: محمد القاضي، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، 2010.